عيد الأضحى

مَقَاصِدْ

وعِـبَرْ

مقدمـة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد آله وصحبه ومن والاه

أيها الأحبة الكرام .. بمناسبة عيد الأضحي المبارك أقدم لكم أرق التهاني ..

كل عام وانتم جميعا بخير وسلام

وأودُّ بهذه المناسبة تقديم بعض الأفكار والإستنباطات المستخلصة من الحدث التاريخي العظيم .. قصة التضحية والفداء ، والتي كان أبطالها نبي الله إبراهيم وإبنه اسماعيل عليهما صلاة الله تعالى وسلامه وبركاته كما لا نغفل دور السيدة هاجر التي كان لها دور غير مباشر فهي الجندى المجهول.

وقد توكلت على الله في تجميع مادة الموضوع لتقديمه على وجه مرضى.

القصة والتي جاء ذكرها بالقرآن الكريم كما نعلم هي ليست للتسلي والإخبار بما حدث وكان فقط .. وإنما يتوجب علينا البحث في مقاصد ذكرها ، والغوص بعمق لسبر أغوار الحكمة مما حدث ، حيث أنها وقعت بتقدير الله عزوجل وهو الحكيم العليم .. إذن فهناك قَدَرٌ وحكمةٌ مما حدث ، ليكون نبراساً لنا ويكون بمثابة معالم على دربنا في السير الى الله عزوجل.

ولهذا كان البحث والتنقيب عن المقاصد والأهداف التي ترشدنا وتصحح لنا ما اعوجّ من سلوكياتنا او ما غَبّش وشوّش على أفكارنا ، أو كان سبباً في رِقّةِ إيماننا بالله تعالى ، فبعضٍ منا ينتابه اليأس والقنوط ، وآخر يصيبه الشك في يقينه وثالث يغرق في بحور الحيرة .. وهكذا!!

اسأل الله أن ينفعني وإياكم .. وأن ينفع بنا .. اللهم آمين!

مناسبة عظيمة ذات دلالات

فى مثل هذه الأيام من كل عام يهل علينا عيد الأضحى المبارك ، وقد عاشت الأمة الإسلامية هذه المناسبة الجليلة ، تلك الشعيرة الربانية العظيمة التي تضمنت في طياتها :

- دروسا كثيرة
- وعظات بليغة
- ودِلالات عميقة
- ومظاهر متعددة من أنماط التقرب إلى الله تبارك وتعالى ، والتماس القربَةَ إليه سبحانه بتقديم الأضاحي وذكرَ الله عليها شكرا وحمدا له سبحانه على عظيم عطاياه وجزيل نعمه

حتى إذا أدّى المسلم صلاته وأفرى أوداج ذبيحته وأراق دمها وسقطت واجبةً هامدةً ونادى الله من علٍ :

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾

- ✓ ساعتئذ تنهمر ذنوب المضحّي وخطاياه وتندفع بقوة وتجري مع دم ذبيحته
- ✓ حتى يصير المضحي أطهر وأنقى ما يكون
- ✓ وينالُ بكل صوفة أو شعرة حسنة ، والحسنة بعشر أمثالِها

- ✓ وتأتي غدا أمام الله عزوجل بقرونها تُجادل عن صاحبها وتشفع له عند الله تعالى!

عندئذ تصير نفسُه كمرآةٌ بين يديه ، ينظر إلى عيوبها واعوجاجها فيصلحها ويقومها ، ويستنزل من أنوار التقوى ما يُكشفُ به الحجب ، ويواصل به الطريق إلى الله على بصيرة وهدى ، فيلقى ربه راضيا مرضيا ، ذلك لأنه عظم شعائر الله ، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب.

لذلك وحتى لا يتحول هذا عيد الأضحى إلى مُجرد فرحة الفقراء باللّحم ، وفرحة الأطفال بالخروف ، والملابس الجديدة والبالونات ، يجب على كل أب وكل أم أن يجمعا أبناءهما ويحكيان لهما قصة الذبح ويوضحان الدروس العظيمة التى في ثنايا أحداثها.

لماذا تتكرر علينا في كل عام قصة ذبح إبراهيم عليه السلام لابنه؟
وما الهدف من اقتداء المسلمين به بذبح الأضاحي؟
ولماذا يتحول موقف أب يريد أن يذبح ولده من آلاف السنين لاحتفالية وعيد يفرح فيه الناس؟
كل هذه الأسئلة بالتاكيد تدور في ذهن الكثير عن قصة إبراهيم مع ابنه!

لمحة مختصرة

إنها شعيرة ضاربةٌ في عمق التاريخ ، من خلالها نتذكر قصة خليل الله إبراهيم وذبيحه الحليم إسماعيل عليهما السلام ، بما انطوت عليه من مشاهدات وتجليات ، فما أن رأى في المنام أنه يذبح نجله الحليم الذي رزق به على الكبر وبعد طول انتظار، حتى عزم على تنفيذ أمرالله على صعوبته على النفس ، لأن رؤيا الأنبياء حق.

فما كان من هذا الابن الصبور إلا أن أذعن لأمر الله تعالى في خضوع تام واستسلام منقطع النظير، أن يا أبت افعل ما تومر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين في أروع ما تكون صور التضحية والصبر والتحمّل ، وعزم على أن يفري أوداج ابنه الحليم ، أعلن الله تعالى أن قد نجحت في الاختبار يا إبراهيم ، وسلام على صبرك يا إسماعيل ، إلى هذا أشار مالك المُلك جل وعلا في القرآن الكريم.

تلك قصةُ عيد الأضحى التي أقرها الإسلام وربطها بمناسك الحج وشَرَعَ لها صلاةً خاصة ، وحث على ذكر الله في أيامها ، شُكراً له سبحانه على ما رَزَق من بهيمة الأنعام.

ومن خلال هذه القصة المباركة نحاول بإذن اللهُ تسليط الضوء على ما انطوت عليه من مقاصد وأسرار، وجب استحضارها أثناء وبعد عيد الأضحى واقتباس النور من مشكاتها ، ومن ثَمَّ تخليص هذا النسك مما لحق به من أدران اجتماعية وصبغة تفاخرية.

مقاصد الحدث التاريخي

- فأول مَقصِد هو مسألة التضحية

التضحية ببذلٍ للنفس أو المال أو الوقت في مقابل غاية أسمى ومقصد أعظم رجاءَ ثواب الله وابتغاء رضوانه، إنها الفداء والإيثار والعطاء والجهاد في سبيل امتثال أمر الله !

الدرس المستفاد هو التضحية بالمستطاع من المال أو الوقت ، وبذل الجهد والوسع في التخفيف عن الناس وتفريج الكرب عنهم وعيادة المريض ومواساة المكلوم وغير ذلك من أعمال الخير المتعدية بنفعها على الغير!

إنها التضحية بعُسيْلات الحياة بالتعب والسهر في سبيل نيل رضوان الله!

إن التضحية اليوم تأخذ شكل التربية الصالحة للجيل الناشئ ومحاربة الفساد والإسهام في الإصلاح ، والتعاون والتآزر والتضامن لتحقيق المثل العليا والأخلاق السامية ، التي ما فتئت في انحدار مهول ونقص فاحش.

المقصد الثاني هو قضية البلاء المبين

البلاء سنة كونية جارية إلى يوم الدين ، ذلك أنه لا بد لكل إنسان أن يتجرّعَ من البلاء ما تَصفَرُ منه الأنامل ، وتشيبُ منه الوُلدانْ ، ويَدْعُ الحليمَ حيرانْ ، وذلك في الحقيقة درب الأنبياء والمرسلين ، والعلماء والصالحين ، بل والناس أجمعين .. قال الشاعر:

وكلُّ أناسٍ سوف تدخلُ بينهمُ دُويهيةٌ تَصْفَرُّ منها الأناملُ

فالتاريخ يخبرنا عن أناس تجرّعوا من عظيم الابتلاء ، والأنبياءُ كلُّهم امْتُحِنوا أشد ما يكون الامتحان ، والصالحين كذلك فتنوا أيما افتتان: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ !

فلا مناصَ إذن من أن يَخْتَبرُ اللهُ جل وعلا عباده بشيءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانفس والثمرات ، وطوبى في ذلك للصابرين.

المقصد الثالث هو صبرُ إسماعيلَ

صبر إسماعيل كان كمنارةٍ ..

- ✓ يَهتدِي بها كلُّ من لسعته نوائبُ الدَّهر
- ✓ ويَسترشدُ بها من تجرّع من الكأسِ المُرّ
- ✓ ويَتسلّى بها من أفجعته حوادثُ الزمان
- ✓ ويتعزّى بها ذوو المحن والآلام ..

❖ وبذلك تمضي سفينةُ الحياةِ تمخرُ عُباب الأعوام والقرون لا تلوي على شيءٍ حتى يرثُ اللهُ الأرضَ ومن عليها.

المقصد الرابع أنَّ مع العسر يسراً

إنَّ مع العسر يسراً وبعدَ كلِّ شدةٍ فرجاً ، فبعدَ البلاء العظيم الذي ابتُلِيَ به إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام ، نزلت شآبيبُ رحمة الله ورضوانه ، وعَوّضهما اللهُ بكبشٍ عظيم مع ثبات الأجر والثواب وخلّد قصتهما عِبرةً للعالمين ، وصدق الله إذ يقول: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ !

- فالفرَجُ سليلُ الشدَّةِ
- والمِنَحُ تُولدُ من رحمِ المِحن
- وأن اليُسرَ يتمخضُ به العسرُ عبرَ قناةِ الصبر

وهذا لعمري مُشاهدٌ ومُجربٌ ، فكم من شخصٍ قد يئسَ من علاجِ دائِه أو تنفيسِ كربتِه أو زيادةِ رزقِه ، ثم بعد ذلك تأتي رحمةُ اللهِ فتُنسيه الشقاءَ ، ولو استقصيت مثل هذه الحوادث لوجدت منها الكثير.

المقصد الخامس وضوح الرؤية

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، فاسماعيل عليه السلام يعلم في صغره بأن رؤيا الأنبياء حق ، وأن رؤيا الأنبياء في المنام من الوحي لذلك قال: {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} يعني ما يأمُرك الله به !

ـ وهذا يفيد بأنه تلقى تربية إيمانية كاملة وواضحة من صغره.

المقصد الخامس السمع والطاعة

فقد استسلم إسماعيل لطلب والده على الرغم من صعوبته ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ يعني استسلما لأمر الله عندما أخبره به ، فألقاه إبراهيم علي وجهه حتى لا يشاهده أثناه ذبحه فيتأثر ويتراجع أثناء تنفيذ أمر الله تعالى!

المقصد السادس البديل السريع للبر والطاعة

عندما يطيع الإنسان ربه أو يطيع الابن والديه في أمر يكره فعله فإن الله يعوضهما خيراً: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ .. فنال إبراهيم جائزة فورية نتيجة نجاحه في الاختبار العائلي ، ونال إسماعيل كذلك جائزة فورية أخرى بنزول الكبش نتيجة بره لوالده.

ـ وقد وصف الله إبراهيم وإسماعيل بأنهما محسنين ، والمحسن هو المخلص في عمله المراقب لربه والمتقن لصنعته والباذل للمعروف والخير.

❖ لطيفة ..

بعد نجاح إبراهيم وابنه في اختبار الله وامتحانه ، أنزل الله لهما كبشًا عظيمًا من السماء فداء لسيدنا إسماعيل ، ليذبح بدلاً عنه ، ثم ليكبر سيدنا إسماعيل ويشارك أباه في بناء الكعبة المشرفة.

ـ لقد علم الله سبحانه وتعالى أن ذبح المرء لولده هو أقسى شيء على النفس البشرية ، وما خلق الله الخلق ليعذبهم وإن كانوا هم قساة على أنفسهم فالله أرحم بهم منهم على أنفسهم فأراد الله إبطال هذا النوع من التضحية ، فاختار خليله إبراهيم عليه السلام ليكون هو المثال العملى لإبطال هذه العادة .. وقد أنهي الله العادة التي كانت متأصلة في هذا الزمان وخاصة فى العراق والشام ألا وهي ذبح البشر فداءً لله ، فعلم الناس أن الفداء يكون بالحيوان وليس بالإنسان ، وذلك بفضل استسلام ابراهيم الخليل وابنه لأمر الله عزوجل!

ـ ولو تقاعس أبوالأنبياء وابنه اسماعيل عن تنفيذ ما أمر الله لفُرض على الناس من بعد عادة ذبح البشرفداءً لله عزوجل.

ومن هنا جاء جاءت مشروعية العيد عند المسلمين بعد ذلك ليكون يوم الأضحى ، وذلك فرحًا بنجاة سيدنا إسماعيل.

ـ وقد شرع الله عيد الأضحى في السنة الثانية من الهجرة، ليحتفل المسلمون بتلك الذكرى العطرة وبهذا الفداء العظيم ، وتخليداً لفعل سيدنا إبراهيم عليه السلام.

المقصد السابع اعمل صالحًا واترك أثرًا

فالعمل الصالح عمره طويل وأثره كبير .. ولهذا صارت قصة الذبح تاريخًا للناس ودينًا للبشرية !

فصار أثر إبراهيم وابنه مستمرًا حتي قيام الساعة.

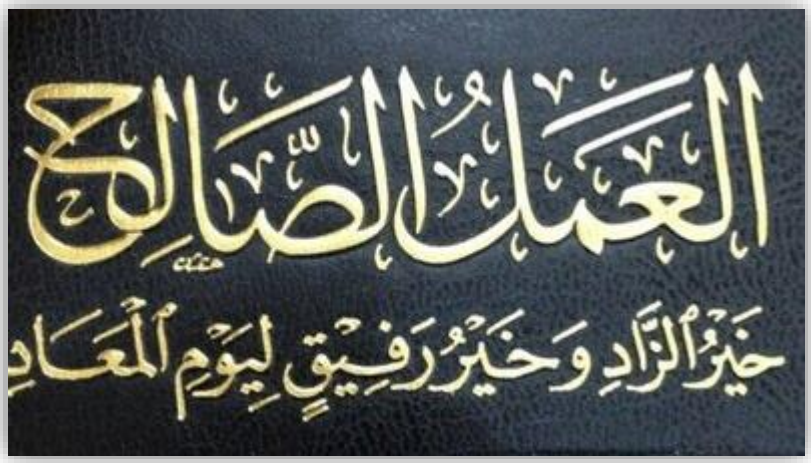

المقصد الثامن الصداقة التربوية

يتضح من الحوار بين الأب وابنه أن العلاقة بين إبراهيم عليه السلام وولده علاقة قوية ، وهي أكبر من علاقةٍ أبويّةٍ وإنما هي علاقة صداقة ، وهذه يصعب تحققها في مرحلة المراهقة : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ ويعني {بلغ السعي} أي صار يسعى ويمشي مع والده ويقضي معه حوائج الدنيا ، ومن هنا نستدل على أن العلاقة كانت علاقة تجاذب لا تنافر بينهما.

المقصد التاسع الحوار الناجح

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ فعلى الرُغم من أن إبراهيم عليه السلام تلقى أمرًا بالذبح من الله تعالى ، إلا إنه استشار ابنه الصغير وأخذ رأيه بقوله {ماذا ترى؟}.

ـ وهذه لفتة تربوية مهمة بأن نتحاور مع أبنائنا حتى في الأمور المُسَلّمَة والمفروضة التي أمرنا الله بها ، لأن الأبناء وخاصة في سن المراهقة يرون الحوار معهم احترامًا وتقديرًا ولا يحبون ويكرهون الفرض والإجبار.

المقصد العاشر كرم الله عظيم

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ا لْمُؤْمِنِينَ ، وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فمن يصبر على أوامر الله الصعبة فإن الله يغدق عليه بكرمه أكثر مما يطلبه الإنسان ، فكان من كرم الله تعالي أن رزقه بولد آخر نتيجة صبره وطاعته ونجاحه بالاختبار، ليسعده وتقر عينه بولد آخر وهو إسحاق عليه السلام.

المقصد العاشر نزول البركة بسبب الطاعة

﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ وبعد الكرم الإلهي بارك الله في إبراهيم عليه السلام وذريته بسبب طاعته ونجاحه بالاختبار العائلي ..

- فبارك بذرية إسماعيل وكان منها الحبيب المصطفى رسولنا **محمد** صلي الله عليه وسلم .

- وبارك في ذرية إسحاق كذلك فكان منها نبي الله يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام .

وهذا كله جزاء النجاح في اختبار الذبح.

المقصد الحادى عشر عصيان أكبر عدو

وهو الشيطان الذي كان يحاول منع تنفيذ مشروع الذبح حتى يسقط إبراهيم عليه السلام بالاختبار ..

ولكنه رجمه وعصى أمره ففاز وصار خليل الرحمن.

الدور الخفي والجندى المجهول

السيدة الفاضلة هاجر

إنها السيدة التي كان دورها من أهم الأدوار في حياة وتربية نبي الله إسماعيل عليهما السلام.
ذكرنا أن أبطال القصة هما إبراهيم و إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، والحقيقة أن الله الذى أمرنا بذبح الأضحية أمرنا أيضا بالسعى بين الصفا والمروة وما قام بالسعى الإ السيدة هاجر ..

تسعى الحجيج على خطى أمنا هاجر من سطرت بطولة اليقين بالله !

﴿ إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع ﴾ صحراء مقفرة .. لا شيء يحرك سكونها إلا صراخ الرضيع .. فهل بكت هاجر أو سجل التاريخ أنها اشتكت؟ .. لا وحاشا لله !

لقد تمسكت باليقين وقالت : { إن الله لن يضيعنا }.

فثمة ما يستحق الحياة .. ثمة ما يستحق السعي .. ثمة حكمة وراء كل هذا الهول ، نعم ..

ثمة زمزم تنتظر ضربة قدم الصغير لتسقي العالم إلى يوم الدين

وفجرت لنا ضربة قدمه المباركة الخيرات كما فجرت زمزم لأمنا هاجر.

لقد اجتمع أعمال الذبح يوم النحر ورمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة في أعمال الحج وفي مناسبة عيد الأضحي.

فمن الإنصاف ذكر دور هاجر أم اسماعيل .. فما قال إسماعيل لأبيه إفعل ما تؤمر إلا بعد أن قالت أمه من قبل إذن لن يضيعنا الله فهى التى قامت على تربيته تربية إيمانية وأرضعته هذه الثقة بالله .. وما كان لأبراهيم أن يراه عند الكعبة إلا ببقاء هاجر ترعي شؤن وليدها الى أن ترعرع وبلغ السعي.

أمنَّا هاجر بلغة العصر الجندى المجهول الذى يصنع النصر و يمضى فى صمت ، إنها أسرة إبراهيم المباركة ، اللهم صلى على إبراهيم وآل إبراهيم.

الدروس المستفادة من هاجر

- اليقين بالله الذى تمتعت به أمنا هاجر ولم يتزعزع.
- طاعة الزوجة الصالحة التى آزرت زوجها إبراهيم ليُحقق ما حقق وعاونته ولم تعرقل سعيه.
- الصبر على تحمل عناء وأعباء الحياة مع رضيعها في أرض صحراء قفراء لا زرع فيها ولا ماء ولا مقومات حياة.
- التربية الحسنة لإبنها الذى واجه ابتلاء الله واختباره له مع أبيه بنجاح منقطع النظير.

هاجر .. إمرأة فخر لكل النساء و مثلها السيدة خديجة أم المؤمنين وعلينا أن نفخر بذكرهما.

خاتمة

هذه الدروس والأسرار وغيرها لك أخي الكريم ، مما وسعته القدرة على الإطلاع واختيار من مقالات لكل من (القاضى/ جاسم المطوع ، والأستاذ/ محمد بن بوعنونو ، والكاتبة/ نرمين كحيلة ، وأخي الحبيب/ محمد ابوالحسن ومشاركات أخرى) كي تستحضرها وتربطها بعيد الأضحى المبارك ، وتستنزل بها من البركات ما ينفعك عند الله ، وحتى لا يستحيل العيد مجرد مناسبة اجتماعية فارغة من كل دلالة وخالية من كل صبغة دينية ، خصوصا في ظل التغول المادي والطغيان الاجتماعي.

نقترح قراءة هذه الدروس على أبنائنا ليستفيدوا من قصة الفداء بذبح عظيم.

هذا وعلى نبينا السلام في كل بدء وختام.

مع تحيات أخوكم / أبوالحسن الحناوى

فييـنا في 21 من يوليو 2021 م

الموافق 11 من ذى الحجة 1442 هـ